جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

من بلاغة الصمت في سورة مريم

بقلم الدكتورة

بيان بنت إبراهيم بن عبد العزيز السيف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد قسم اللغة العربية- كلية التربية ـ
جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز بالخرج ـ المملكة العربية السعودية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م
الجزء الرابع (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

من بلاغة الصمت في سورة مريم

بيان بنت إبراهيم بن عبد العزيز السيف

قسم اللغة العربية- كلية التربية ـ جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز بالخرج ـ المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : baeaan_1980@yahoo.com

الملخص

حظيت بعض من ظواهر الخطاب والتواصل على اهتمام العديد من العلماء، ومن بينها ظاهرة " الصمت" بوصفه نظاما تواصليا، ونسقا خفيا في الخطاب يسهم في دفع حركته، ويوجه الدلالة في العملية التواصلية، وهو ظاهرة لغوية في النظام التواصلي تتنوع صورها بتنوع اتجاهات المبدعين، فدلالة السياق تدفع المتكلم أحيانا إلى الصمت عند بعض الكلام .

وللصمت أبعاد ودلالات في الخطاب تتكون عندما يعجز المتكلم عن توصيل المعنى، وهذا هو عنوان البلاغة؛ لهذا تحاول هذه الدراسة الكشف عن هذا المصطلح وبلاغته، وهو من المصطلحات المهمة التي وردت في القرآن الكريم، مع التعريج على الدلالات التي يؤول إليها في بعض الخطابات، وقد استعمل بألفاظ متعددة ومعان مختلفة إما تصريحا بلفظه أو مرادفاته، أو ما يفهم من سياق المعنى .

الكلمات المفتاحية : القرآن الكريم، الدلالات، التواصل، البلاغة، الخطاب، اللسان، الصمت، السكوت.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

٣٨٨٠

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

From the eloquence of silence in Surat Maryam

Bayan Bint Ebrahim Abdul Aziz Alsif
Department- College of Education at AL-Kharaj, University of Sattam bin Abdul Aziz – Kingdom of Saudi Arabia
Email: amasum@stu.kau.edu.sa

Abstract

Some of the phenomena of discourse and communication have received the attention of many scholars, including the phenomenon of "silence" as a communicative system, and a hidden pattern in the discourse that contributes to advancing its movement, and directs the significance in the communicative process. The context sometimes pushes the speaker into silence when some of the words are spoken.

Silence has dimensions and connotations in the discourse that are formed when the speaker is unable to communicate the meaning, and this is the title of rhetoric. This is why this study attempts to reveal this term and its eloquence, and it is one of the important terms mentioned in the Holy Qur'an, with reference to the connotations to which it denotes in some discourses.

Keywords: The Holy Qur'an, semantics, communication, rhetoric, discourse, tongue, silence, silence..

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي نوّر بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعذب أسلوب، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من بعثه الله رحمة للعالمين، شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، سيدنا محمد النبي الأمي الذي علمه ربه ما لم يكن يعلم، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد:

فالإنسان كما هو متعارف عليه اجتماعي بطبعه أي لا يستطيع العيش دون الاتصال والتواصل مع غيره من بني البشر، فهو بحاجة إلى مخالطة الناس والتعامل معهم، والتواصل البشري بطبيعته ينقسم إلى قسمين: فهو إما أن يكون بالاتصال اللفظي أي باستخدام الكلمات المنطوقة أو المكتوبة، أو بالاتصال غير اللفظي (الصامت) وهو ما يسمى بلغة الجسد .

أهمية الدراسة:

تعود أهمية هذه الدراسة إلى أن القرآن الكريم له أساليب وطرائق اطردت فيه، وهي في حاجة إلى إمعان نظر، وإعمال فكر، وتتبع دقيق، وتأمل بعيد؛ حتى يتمكن الباحث في أسرار هذا الكتاب المعجز من الوقوف عليها، وتجليه بعض من أسرارها .

ولما كانت اللغة قائمة على أصوات وهذه الأصوات تنتظم لتكون كلمات، فهي بدورها تشكل الجمل كان الصمت وراء كل مستويات اللغة من صوت وكلمة وجملة، وله أهمية كبيرة في المنظومة القرآنية، فقد حوى القرآن الكريم على الكثير من الأمثلة التي تصور الصمت (لغة الجسد) وتوظيفها توظيفا بيانيا يتناسب مع سياق الآيات الواردة فيها، ونُقلت رسائل

كثيرة من خلالها، ووردت لفظة (الصمت) في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الأعراف، قال تعالى: {وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُون}[الأعراف:١٩٣] .

الدراسات السابقة:

في حدود ما كُتب عن الصمت البلاغي تكاد تكون قليلة جدا؛ مما دفعني إلى طرح هذا الموضوع ودراسته من زاوية أخرى، ومن الدراسات السابقة لبلاغة الصمت في القرآن الكريم الآتي:

١ــ بلاغة الصمت وأسلوب الحذف في الخطاب القرآني "دراسة نصية" د. بخولة بن الدين، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، مجلة التراث، العدد ١، المجلد ١٠، ٢٠٢٠م .

٢ــ الصمت البلاغي (رحلة الصمت من النص إلى السينما) د. زكية بنت محمد العتيبي، مقال عام ٢٠٢٠م .

٣ــ لفظ " الصمت " في الخطاب القرآني بين التصريح والتلميح، د. آية الله عاشوري، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية ــ الجزائر ــ مجلة التأويل وتحليل الخطاب، العدد الأول من المجلد الثاني، ٢٠٢١م .

٤ــ بلاغة الصمت دراسة تداولية، د.وليد سعيد شيمي، مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم، عدد (٣٦) ٢٠١٥م .

٥ــ الصمت سياسة في القول، ضمن كتاب في الصمت، (الندوة العلمية الدواية) القسم العربي، أشرف على جمعه وقدمه، محمد الشيباني، جامعة صفاقص، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، ٢٠٠٨م .

منهج الدراسة:

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي القائم على البحث والنظر والتحليل للآيات القرآنية من خلال استخراج الدلالات والمعاني التي تحمل معنى الصمت، وإيراد بعض اللطائف البلاغية .

خطة الدراسة: يتكون البحث من مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث:

التمهيد:

أولًا: **الصمت في اللغة والاصطلاح** .

ثانياً: **بلاغة الصمت في التراث العربي** .

المبحث الأول: **التعريف بسورة مريم** .

المبحث الثاني: **دلالات الصمت البلاغية في سورة مريم** .

المبحث الثالث: **مرادفات الصمت في سورة مريم** .

التمهيد

أُعتبرت اللغة نظام من الرموز الصوتية، أو كما عرفها ابن جني (٣٩٢هـ) في كتابه الخصائص: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والصمت كما يرى الشاعر التشيلي (بابلو نيرودا) هو: اللغة الرئيسة للإنسان، عندما جعل الكلام باب من أبوابه بقوله: " الكلام هو أحد أجنحة الصمت " فالصمت قد يؤدي وظيفة لا يستطيع الكلام القيام بها .

ففي المجتمع البشري ندرك الكثير من مشاعر الآخرين عن طريق نبرات أصواتهم أو إشاراتهم أو نظراتهم دون أن يخبرنا أحد بذلك، والتواصل بلغة الصمت هو تعبير عن المعاني المكتومة في الضمير، فهو بيان لفكرة أو عاطفة ما، وتكمن بلاغة الصمت كونها منوطة بقوة من يصمت وفهم مخاطبه ومقتضى الكلام أيضا، وبلاغة الصمت تختلف عن بلاغة الكلام كما يقول د. بدر الدين مصطفى: " فهي تنساب من أوتار المشاعر ــ وحدها ــ بهدوئها أو اهتياجها "بينما " بلاغة الكلام لها قنوات كثير تنساب منها " [١] .

والصمت نظام تواصلي يعتبر من الأنظمة العلاماتية غير الملفوظة التي يمكن من خلالها إيصال رسالة من المرسل للمستقبل، ويمكن للمرسل أن يوظف نظام الصمت في إيصال رسائل للمستقبل قد لا يمكن إيصالها بالأنظمة العلاماتية الأخرى . [٢]

وبيّن د. وليد شيمي أن بلاغة الصمت في البلاغة العربية تظهر في بابين هما: باب الحذف وباب القصر [٣] .

---

(١) الصمت البلاغي (رحلة الصمت من النص إلى السينما) د. زكية بنت محمد العتيبي .

(٢) بلاغة الصمت دراسة تداولية، د.وليد سعيد شيمي، مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم، عدد (٣٦) ٢٠١٥م، ١ .

(٣) بلاغة الصمت دراسة تداولية، د.وليد سعيد شيمي، مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم، عدد (٣٦) ٢٠١٥م، ١ .

أولًا: الصمت في اللغة:

يعد الصمت عنصرا مهما في تحديد مفهوم البلاغة، وقد عده بعض علماء البلاغة العربية أنه على درجة كبيرة من البلاغة، كما يؤكد " التراث الشعري العربي على دور الصمت في الإبانة ونقل المعنى وأهميته في عملية الفهم والإفهام، وأن الصمت عن الجواب يمكن أن يشكل جوابا بليغا " (١)

وجاء في معجم مقاييس اللغة: " "الصاد والميم والتاء أصل واحد يدل على إبهام وإغلاق" ويدل الجذر اللغوي (ص . م . ت) على الإبهام والإغلاق، ومن ذلك صمت الرجل إذا سكت، وأصمت أيضا، ومنه قولهم التقيت فلانا ببلدة إصْمْت، وهي الفقر التي لا أحد كأنها صامته ليس بها ناطق، ومنه " لا صامت له ولا ناطق؛ فالصامت: الذهب والفضة، والناطق: الإبل والغنم" (٢) .

وقد اتفقت أغلب المعاجم اللغوية على المعنى اللغوي الذي طرحه ابن فارس في مقاييسه؛ إذ الصمت من: صمت يصمت صَمتا وصُمتا وصُماتا؛ وأصمت: أطال السكوت، والتصميت التسكيت، والتصميت أيضا التسكيت (٣)، وعند علماء اللغة والبلاغة الحذف، وهذا الاسقاط في اللغة موضوع في غاية الدقة والتعقيد بل هو باب البلاغة وقطب الرحى فيها، وعليه مدار الإعجاز(٤).

---

(١) بلاغة الصمت دراسة تداولية، د. وليد سعيد شيمي، مجلة كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، عدد (٣٦) ٢٠١٥م، ١

(٢) مقاييس اللغة، ج٣/٣٠٨ .

(٣) ينظر: لسان العرب، ج ٢٧٨/٨ .

(٤) ينظر:الصمت سياسة في القول، ضمن كتاب في الصمت، (الندوة العلمية الدولية) القسم العربي، أشرف على جمعه وقدمه، محمد الشيباني، جامعة صقاقص، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٩٠ .

الصمت في الاصطلاح:

يعد الصمت عملية تخاطب لا تنتج ملفوظا لسانيا وإنما فراغا نصيا، ذا دلالة تساوي أو تفوق دلالة الكلام، والصمت والصوت ثنائية معجزة في عموم الوجود، والصمت يتبطنه في هذا الوجود الصوت، يتناوبها الخفاء والانجلاء في ثنائيات متشابكة دالة على حكمة معجزة .

والصمت عزوف عن الكلام، لذلك فهو يحمل بين طياته معان وإيحاءات متعددة؛ لذا يعد مظهرا من مظاهر انفتاح النصوص والقراءات المتعددة، وله دلالة وطاقة شعورية تعجز اللغة أحيانا عن إيصالها للمخاطب .

ويعد الصمت أبلغ من السكوت لأنه " قد يستعمل فيما لا قوة له على النطق، ولذا قيل لما لا ينطق: الصامت، والسكوت يقال لما له نطق " [١]، قال المناوي: " الصمت: فقد الخاطر بوجد حار، وقيل: سقوط النطق بظهور الحق، وقيل: انقطاع اللسان عند ظهور العيان " [٢]وقال الكفوي: " والصمت إمساك عن قوله الباطل دون الحق" [٣] .

ويبين محمد داود أن الصمت: " يعد طريقا إلى الصحة النفسية، والكمال الأخلاقي والإنساني... والصمت قدرة، والقدرة من الحكمة... والصمت هو مخالفة للنفس التي تتطلب شهوة الكلام، فهو نجاة من الهوى وفوائده عديدة... فالصمت آية من آيات الله، وحكمة من حكمه " [٤].

---

(١) معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان ـــ ط٥، ١٤٢٨هـ ـــ ٢٠٠٧م، ٥٩٨ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، ٢١٩ .

(٣) الكليات، ٨٠٦ .

(٤) اللسان ميزان بين الصمت والكلام، عبد الباري محمد داود، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٤٥ـــ ١٤٧ .

ثانيًا: بلاغة الصمت في التراث العربي:

أكد العلماء القدامى على أهمية الصمت وفضلوه على النطق، وأنه يلعب دورا كبيرا في الإبانة ونقل المعنى وأهميته في عملية الفهم .

واتصل الصمت اتصالا قويا بالدرس البلاغي، ولا يختلف مفهوم الصمت عند علماء اللغة والبلاغة كثيرا عن مفهومه عند أهل المعاجم، فعرف عندهم بالإيجاز والحذف، وقد عُرفت البلاغة عنما سئل بعضهم عنها بأنها: " الإيجاز من غير عجز" [١]، وقال ابن الأعرابي: " فقلت للمفضل ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد " [٢]، لذلك عُد الحذف والإيجاز من أبرز مظاهر الصمت، فالحذف" صمت، والصمت أعلى درجات الإفصاحية في اللغة العليا، وهو صنو الصوت والصورة " [٣] .

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أن للصمت منزلة رفيعة، وهو يتحدث عن أبواب الصمت البلاغي، وأوسعها (الحذف) بقوله:" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون بيانا إذا لم تبن"[٤]

وقد عد بعض البلاغيين (السكوت) من البلاغة، فابن المقفع عندما سئل ما البلاغة؟ قال: " البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما

---

(١) البيان والتبيين: ٦٧/١ .

(٢) المصدر السابق: ٩٩/١، و العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة ـــ القاهرة ــ ١٩٥٣م . : ١٢٣/٢ .

(٣) العلامة البصرية والبنى الرامزة، قراءة في شعر عبد الهادي الفرطوسي وسردياته، أ.د. عباس محمد رضا، دار تموز للطباعة والنشر ــ دمشق ـــ ط١، ٢٠١٢م . : ٦٨ .

(٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ط٥، ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م، ١٤٦.

يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة... فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة " (١) .

ويستعمل البلاغيون مصطلح الإشارة أيضا وهي الإيماء، يقال: أشار باليد أو أومأ، وأشار الرجل يشير إشارة إذا أومأ بيديه(٢) ، وعدها الجاحظ من أنواع البيان(٣)، واستعملها بعض البلاغيين بمعنى الإيجاز(٤)، يقول قدامة بن جعفر عن الإشارة: "أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها ولمحة تدل عليها،كما قال بعضهم، وقد وصف البلاغة فقال:هي لمحة دالة"(٥).

وقال عنها ابن رشيق: " وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه " (٦) .

وقد استلمح الجاحظ الصمت والنطق مراعيا مقام الكلام، يقول: " اعلم أن الصمت في موضعه ربما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة المعنى، وذاك صمتك عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عيا ولا رهبة، فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص، وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة " (٧).

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٩٨م.١/١١٥ ــ ١١٦ .
(٢) ينظر: لسان العرب: (شور) ٨/١٦٠ .
(٣) ينظر: البيان والتبيين: ١/٨٣ .
(٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون ، ط٢، ١٩٩٦م، ١٢٢ ــ ١٢٤ .
(٥) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب ــ قسطنطينة، ط١، ١٣٠٢م. ١٥٢، وينظر: حلية المحاضرة في صناعة الشعر، محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: جعفر الكتاني ـــ بغداد ــ ١٩٧٩م . ١/١٣٩.
(٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٣٠٢ .
(٧) رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون ــ القاهرة ــ مصر، ١٩٦٤م، ج١/١١٣ .

كما فرّق بين لفظتي السكوت والصمت حين قال: "ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا، وأشار إليه وإن كان ساكنا، وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات " [١] .

من خلال حديث الجاحظ يتبين لنا أنه يعتبر الصمت صفة جيدة، ما لم يكن عيا، أو عجزا، أو رعبة، وأن الصمت متى كان في موضعه كان أنفع لصاحبه من اللغو والكلام الزائد، وله معان كثيرة؛ فهو علامة فرح وسرور، وهو أيضا علامة حزن وألم، وهو يدعو إليه معتبرا إياه من صنوف البلاغة، فالصمت المقصود عند الجاحظ هو ذلك الصمت الذي حثنا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

وامتدادا لهذه الأهمية عقد بعض العلماء والأدباء من بينهم الكليني في كتابه (أصول الكافي) والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) بابا في الصمت يبين به ما امتازت به تلك اللغة من علو ورفعة لصاحبها، وهي أخيرا تعد لغة البلاغيين والعلماء جميعا [٢] .

---

(١) البيان والتبيين، ج١/ ٨١، ٨٢ .

(٢) المصدر السابق، ج١/ ٨١، ٨٢ .

المبحث الأول

التعريف بسورة مريم:

سورة مريم من السور المكية، وعدد آياتها تسعة وتسعون آية، وقيل ثمانية وتسعون آية عند المكيين والمدنيين، وثمانية وستون عند الكوفيين والشاميين [١]. ولهذه السورة الكريمة اسمان: سورة مريم؛ لاشتمالها على قصتها مفصلة، وسورة (كهيعص)؛ لافتتاحها بها [٢].

أهداف السورة ومقاصدها:

سورة مريم لها ثلاثة مقاصد أساسية تدور جميعها على محور التوحيد، وهي إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن الولد، وإثبات البعث [٣].

وتبدأ السورة بقصة زكريا ويحيى عليهما السلام، فقصة مريم ومولد عيسى عليه السلام، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه، ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم ونوح، وجميع هذه القصص تهدف إلى إثبات الوحدانية والبعث ونفي الولد والشريك، وبيان منهج كل من المهتدين والضالين من أتباع النبيين .

ثم تعرض هذه السورة الكريمة وصف للجنة وأهلها، وحكاية إنكار المشركين البعث، وإنذارهم بأن الأصنام التي اعتزوا بها سيندمون على

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج١/٩٠، ومناهل العرفان في علوم القرآن ج١/١٩٤، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ج١/٣٠٥، ونظم الدرر في تناسق الآيات والسور للبقاعي، ج١٢/١٥٦ .

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي ١/٣٠٥، وجمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي، مؤسسة الكتب الثقافية ــ بيروت ــ ١/١٩٩ .

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ــــ ط٤، ١٤٣٢هـ ــــ ٢٠١١م، ج٤/٥١٤، والتحرير والتنوير، ١٦/٥٨ .

اتخاذها آلهة من دون الله، ووعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر على أعدائه، وتحكي ضربا من كلام الكفار بنسبة الولد إلى الله عز وجل، وتختم بالتنويه بالقرآن الكريم وأنه بشير لأوليائه، ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم (١).

مناسبة السورة لما قبلها:

أما مناسبة السورة الكريمة لما قبلها أن الله سبحانه وتعالى ضمّن السورة قبلها قصصا عجبا كقصة أهل الكهف، وقصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، كذلك تضمنت هذه السورة قصصا عجبا من ولادة يحيى بين شيخ فان وعجوز عاقر، وولادة عيسى من غير أب، فلما اجتمعا في هذا الشيء المستغرب ناسب ذكر هذه السورة بعد تلك (٢).

قال البقاعي: " ولما كان مقصود التي قبلها الدلالة على أن القرآن قيم لا عوج فيه... إلى غير ذلك مما خلله به من بدائع الحكم وغرائب المعاني، فاضحة لمن ادعى لله سبحانه وتعالى ولدا، وختمها بمثل ذلك، وصف الكتاب التوحيد والعمل الصالح، ابتدأ هذه بالكشف عن أغرب من تلك القصص، تحقيقا لآية : {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [الكهف:٩] بسياق غير ما تقدم فيما مضى من السور، وجزئيات لم تذكر إلا فيها مع عدم المخالفة لما مضى تأييدا لأن كلماته لا تنفد، وعجائبه لا تعد ولا تحد " (٣).

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٨/١٦ .

(٢) ينظر: البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـــ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ١٦٣/٦ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ـــ ط٤، ١٤٣٢هـ ـــ ٢٠١١م، ج٥١٧/٤ .

المبحث الثاني

دلالات الصمت البلاغية في سورة مريم

افتتحت سورة مريم بالحديث عن قصة زكريا عليه السلام وهي السورة الوحيدة التي ابتدأت بالحديث عن القصة القرآنية مباشرة من غير مقدمات لها.

وبدأت السورة الكريمة بالنداء الخفي من زكريا عليه السلام لربه، وهو الصوت الهامس والدعاء الخافت الذي رفعه زكريا عليه السلام إلى ربه وشكا ضعفه ووهنه وشيبه ووحدته، وحاجته إلى الولد الذي يسانده ويكفيه ويحمل اسم آل يعقوب، يقول الله سبحانه وتعالى واصفا حال نبيه زكريا: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[مريم:١ــ٦] وُصف هذا النداء بقوله: {خَفِيًّا}ولكن هناك سؤال كيف يكون نداء مع كونه خفيا؟ و يمكن النظر إلى ذلك من كون زكريا قد بث دعاءه وشكواه إلى ربه وهو في حال مناجاة له مع الله سبحانه وتعالى، وربما يكون الدعاء الخفي من زكريا ليكون أقرب إلى الإجابة [١].

ووصف الله سبحانه وتعالى نداء زكريا ودعاءه له بصفة (الخفاء) بمعنى الاستتار والنجوى والهمس، وفي ذلك دلالة واضحة على ضعف النبي زكريا ووهنه أمام الله سبحانه وتعالى، وعدم استعظامه، وفيه دلاله أخرى أيضا وهي أنه أفاض في وصف هذا الوهن الذي يستوجب الاستجارة بالله، إنه وهن العظم والشيبة .

---

(١) ينظر: المختصر في التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية، مكتبة الملك فهد الوطنية ــ الرياض ـــ ط٢، ١٤٣٦هـ ـــ ٢٠١٤م، ٣٠٧ .

وجاء دعاء زكريا خفيا؛ لأن " زكريا رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس، فلذلك لم يدعه تضرعا وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالبا، فلعل يقين زكريا كاف في تقوية التوجه، فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء، ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفيا؛ لأنه نداء من يسمع الخفاء "[١]، يقول القشيري: " إنما ذلك لئلا يطلع أحد على سر حاله فأخفى نداءه عن الأجانب، وقد أمكنه أن يخفيه عن نفسه بالتعامي عن شهود محاسنه والاعتقاد بالسوء في نفسه" [٢]، وإلى شيء من ذلك ذهب صاحب الميزان [٣]، ويحتمل أيضا إن إخفاء الدعاء أخلص للدعاء وأرجى للإجابة وأبعد عن الرياء [٤] .

ثم دعا النبي زكريا عليه السلام ربه لطلب الولد في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}[مريم:٤] فأمره بالتزام الصمت والاكتفاء بالإيماء لتكون له آية وعلامة لقضاء حاجته، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا}[مريم:١٠] وهذه إشارة أخرى لأهمية الصمت، فقد طلب زكريا عليه السلام علامة يختص بها دون غيره، فجاء بأسلوب إنشائي طلبي بصيغة الأمر، فجاء الرد بأسلوب تقريري دون عاطف مفاده الاستجابة والتي تمثلت في الصوم عن الكلام ثلاث ليال متتالية. وهنا دلالة على إشارة زمنية في قوله: (ثلاث ليال) أسهمت في معرفة قصد المتكلم وفهم الخطاب .

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٢/١٦، ٦٣ .
(٢) لطائف الإشارات، ٩١/٤ .
(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، ٧/١٤.
(٤) ينظر: الكشاف: ٣٠/٣، والنكت والعيون: ٣٥٤/٣ .

وأمر الله سبحانه وتعالى زكريا بالصمت وعدم الكلام حتى يقضي الله له ما يريد، ويرتبط هذا المعنى بالحديث الشريف الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود" (١) .

كذلك النداء الخفي لمريم عليها السلام حيث جاءها من تحتها، قال تعالى: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}[مريم:٢٤] جاء ضمير الرفع في {فَنَادَاهَا}عائد إلى ما عاد عليه الضمير الغائب في {فَحَمَلَتْهُ} أي ناداها المولود، وقيد من {مِن تَحْتِهَا } لتحقيق ذلك، ولإفادة أنه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه مبادرة للتسلية والبشارة، وتصويرا لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتصال الصبي بأمه (٢).

فالصوت والصمت ثنائية معجزة في سورة مريم، فالصمت آية من آيات الله عز وجل خص بها عبده زكريا بعد أن ناجاه ودعاه دعاءه الخفي، وحل محل الصوت التسبيح لله سبحانه وتعالى، وأعقب التسبيح مجيء "يحيى" وتعهد الله له بأن جعله نبيا مباركا تقيا، قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا}[مريم: ١١ ــ ١٣] .

كذلك خص الله سبحانه وتعالى مريم عليها السلام بنداء خفي جاءها من تحتها، وكان بشرى من الله ووحيا منه بولادة "عيسى" عليه السلام، فقال تعالى: {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}فقد بيّن الله

---

(١) الحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٦/٣) حديث رقم (١٤٥٣) وفي صحيح الجامع برقم (٩٤٣) .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير:٨٦/٧ ــ ٨٧ .

سبحانه وتعالى في هذه الآية أن حالة مريم " حالة جديرة بالمسرة دون الحزن؛ لما فيها من الكرامة الإلهية " (١).

وكما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه زكريا بالصمت وكان له آية، أمر مريم ابنة عمران بالصوم أيضا وكانت لها آية، قال تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}[مريم:٢٦] في هذه الآية الكريمة إشارة إلى الصمت الإيجابي، فأمرها بالصوم عن الكلام يوما، فهي بعد أن نفخ الله فيها من روحه وجعلها تلد عيسى عليه السلام المعجزة من غير أن يمسسها بشر خشيت أن تواجه الناس بما لا عهد لهم به، وخافت على نفسها كان لا بد من أن تعبر عن بعض ما ينبغي بيانه وإيضاحه فاستبدلت النطق بالإشارة، قال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم:٢٩] فأشارت لهم إليه؛ ليكلموه، وإنما أشارت لذلك لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا} فلما أشارت إليهم بتكليمه تعجبوا من ذلك {قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن (٢). وفيه إيجاز بحذف جملة قبل الشرط، والتقدير والله أعلم" أنذري صوما وإن لقيت من البشر أحدا فقولي: إني نذرت صوما، فحذف جملة للقرينة" (٣)، والغرض من الحذف الاختصار لدلالة الإخبار بالنذر عليه .

---

(١) التحرير والتنوير: ٨٧/٧ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٥٦٦ .

(٣) التحرير والتنوير، ٩٣/١٦.

كذلك بين الجواب وشرطه جملة محذوفة، والتقدير والله أعلم: فإما ترين من البشر أحدا فسألك الكلام فقولي[١]، فحذفت أيضا لدلالة الأمر بالقول عليها، لكن هذا على جعل القول على الحقيقة، أي أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية، وهو قول الجمهور [٢] .

بينما ذهب جماعة من العلماء إلى أن المراد بالقول هنا الإفهام بالإشارة، أي الإيماء إلى أنها نذرت صوما، وربما يسمى الإفهام بالإشارة قولا، وعن الفراء أن العرب تسمى كل ما وصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر، فإذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام [٣].

وفي تقديم الجار والمجرور في قوله: {لِلرَّحْمَنِ} " للدلالة على تخصيص هذا الصوم لله تعالى، وأنه خالص لوجهه الكريم، وليس عن هوى أو رياء، وفيه إيحاء بتعظيم هذا الصوم؛ لكونه خالصا للرحمن وبأمر منه" [٤]،كذلك التعبير عن الله عز وجل بوصفه الكريم {لِلرَّحْمَنِ} إشارة إلى أن ذلك الصوم من رحمة الله تعالى بها وتقريبه إليها [٥]، واستعمال النكرة في سياق النفي في قوله تعالى:{إِنسِيًّا}لإفادة العموم، أي: لن أكلم أحدا [٦]، ويفهم من التعبير

(١) الدر المصون ٥٠٢/٤ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠٥/١١، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـــ لبنان ـــ ط١، ١٤٣١هـ ـــ ٢٠١٠م، ج٢٩٤/٥ .
(٣) الميزان في تفسير القرآن، ٤٣/١٤ .
(٤) دراسة أسلوبية في سورة مريم، ١٥٥ .
(٥) زهرة التفاسير، للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي. : ٤٦٣١/٩ .
(٦) التحرير والتنوير: ٩٤/١٦ .

بقوله: :{إِنسِيًّا} دون أحدا أن المراد: فلن أكلم اليوم إنسيا، وإنما أكلم الملك وأناجي ربي [١] .

وفي هذا دلالة على أن " السكوت عن الكلام دليل على فضيلة الصمت في بعض المواطن " [٢]، ولم ترد في القرآن الكريم كلمة (الصوم) " مرادا بها الصيام الشرعي المعروف، وهو الإمساك عن الطعام والشراب، وإنما وردت فيه مرادا بها الصمت " [٣]، فمعجزة زكريا عليه السلام فيها عدم النطق رغم ثبوت القدرة عليه، بينما معجزة عيسى عليه السلام فيها إحداث للنطق رغم ثبوت العجز عنه .

وكما ابتدأت سورة مريم بالنداء والصوت الخفي والدعاء الخافت انتهت أيضا بذلك في آخر آياتها، يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}[مريم:٩٧ ــ ٩٨] والركز هو الصوت الخافت الضعيف، قال ابن منظور: " والركز: الصوت الخفي، وقيل: هو الصوت ليس بالشديد" [٤].

فالصمت آية من آيات الله عز وجل، وعلامة من علامات المؤمنين بدليل قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُون وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون}[المؤمنون:١ــ٣] فاللغو هو الكلام الذي لا فائدة منه، واختلف العلماء بهذا المعنى في الآية الكريمة فقيل إنه بمعنى الشرك، وقيل

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين أبي الثناء محمود بن عبدالله الألوسي، مؤسسة الرسالة ـــ بيروت ــ ط١، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م . : ٧٤/١٦ .

(٢) المختصر في التفسير: ٣٠٧ .

(٣) نظرات لغوية في القرآن الكريم، صالح بن حسين العايد، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ــ الرياض ـــ ط٣، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م، ٢٢٣ .

(٤) لسان العرب، مادة (ركز) ٢١٤/٦ .

هو بمعنى المعاصي، ولكن ما يفهم من المعنى العام هو عدم الكلام الذي يقابل الصمت .

وقد أُثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أعداد لا تحصى من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتحدث عن الصمت وتحثنا عليه، وأخرى تعظم من شأنه، ووردت روايات متعددة لبيان جمالية الصمت، وإشارات أخرى تدل على أهمية الصمت وهي اقتران الصمت بالعلم، والمسلم الحق هو من يمتنع عن الكلام الكثير؛ لأنه يعلم أن كل كلمة مسجله من قبل الملكين في سجل أعماله يوم القيامة، قال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد}[ق:١٨] .

وكلام المسلم سلاح ذو حدين إما له وإما عليه، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: ٧٠ــ٧١] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، وكلامه اختص بجوامع الكلم، وهو استعمال الألفاظ القليلة لمعاني كثيرة .

المبحث الثالث

مرادفات الصمت في سورة مريم

حوى القرآن الكريم على آيات كثيرة في سورة مختلفة منه تشير إلى اللغة الصامتة، وذلك من خلال توظيفها بيانيا يتناسب مع سياق الآيات الواردة فيها، ويلمسها كل من تدبر آيات الله عز وجل .

والصمت قد يكون لغة بديلة تلبي حاجات النفوس، وتعبر عن مواقف ومشاعر تعجز اللغة اللفظية عن الوفاء بها، يقول الدكتور محمد يونس فكل إيماءة وحركة من أطرافك تشكل لغة بحد ذاتها، ويكفي أن تراقب شخصا ما تفهم من حركات رأسه وأصابعه ما يريد أن يقول، وتعرف من طريقة جلوسه وملامح وجهه حالته النفسية، ولغة الجسد من الوسائل السامية التي تحقق الكثير من التجاوب بين الناس [١] .

مرادفات الصمت التي ذكرت في القرآن الكريم هي كالآتي:

١ــ **السكوت:** وهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام، قال تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُون}[الأعراف:١٥٤] .

٢ــ **الإنصات:** وهو السكوت مع استماع، قال تعالى: {وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون}[الأعراف:٢٠٤] .

٣ــ **الإصاخة:** وهو الاستماع إلى ما يصعب إدراكه، كالسر والصوت من المكان البعيد " [٢] .

---

(١) سيكولوجيا الدافعية والانفعالات، محمد يونس عبد الله، ص ٣٣٩، ٣٤٠ .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤١٦هـ، ٥٣٧/٥ .

٤ــ **الإصغاء**، قال تعالى: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُون}[الأنعام:١١٣] .

٥ــ **الرمز**، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}[آل عمران:٤١] .

٦ــ **القنوت**، قال تعالى: {يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}[آل عمران:٤٣] قال ابن منظور: " القنوت: الإمساك عن الكلام، وقيل: الدعاء في الصلاة، والقنوت: الخشوع والإقرار بالعبودية ...وفي التنزيل العزيز: {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}[البقرة:٢٣٨] قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: "وقوموا لله قانتين" فأُمرنا بالسكوت، ونُهينا عن الكلام، فأمسكنا عن الكلام، فالقنوت هاهنا:الإمساك عن الكلام في الصلاة"(١).

٧ــ **الكظم**، قال تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[آل عمران:١٣٤] جاء في لسان العرب: " والكظوم: السكوت، وقوم كُظّمٌ أي ساكنون"، وأما معنى الكظم في القاموس المحيط فجاء على نحو: " كظم غيظه يكظمه: رده، وحبسه، وكُظِمَ كعني، كظوما: سكت، وقوم كُظّمٌ كركع: ساكتون"(٢).

٨ــ **الإبلاس**، قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ}[الأنعام:٤٤] جاء في لسان العرب: " أبلس: سكت" (٣).

قال الطبري في تفسيره:" وأصل "الإبلاس" في كلام العرب عند بعضهم: الحزن على الشيء والندم عليه، وعند بعضهم: انقطاع الحجة،

---

(١) لسان العرب، مادة (قنت) ١٩٦/١٢ .

(٢) لسان العرب، مادة (كظم) ٧٥/١٣ .

(٣) المصدر السابق، مادة (بلس) ١٤٠/٢ .

والسكوت عند انقطاع الحجة " [١]، أما الأصفهاني فقد بيّن معنى الإبلاس بقوله: " ولما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعينه قيل: أبلس فلان: إذا سكت وإذا انقطعت حجته " [٢].

مرادفات الصمت الوارد ذكرها في سورة مريم

١ــ الصوم:

من معاني الصوم عند العرب الإمساك عن الكلام، يقول ابن منظور:" وقوله عز وجل: " إني نذرت للرحمن صوما " قيل: معناه صمتا، ويقويه قوله تعالى: " فلن أكلم اليوم إنسيا" [٣]، والمراد " أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد " [٤].

وقد ذكر الرازي أن مريم عليها السلام لم تتكلم؛ لأنها كانت مأمورة بأن تأتي بهذا النذر عند رؤيتها، فإذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم لوقعت في المناقضة، ولكنها أمسكت وأومأت برأسها [٥] .

وقوله تعالى: {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}[مريم:٢٦] ذكر ابن كثير أي مهما رأيت من أحد

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، ٣٦٢/١١ .
(٢) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني : ١٤٣ .
(٣) لسان العرب: مادة (صوم) ج٣٠٨/٨ .
(٤) تفسير ابن كثير، للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت، ١٤٣٥هـ ــ ٢٠١٤م، ١١٢/٣ .
(٥) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المكتبة التوفيقية ــ القاهرة ــ مصر، ٢٠٠٣م. ١٨٨/٢١ .

والمارد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا المراد به القول اللفظي لئلا ينافي{ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا} (١).

وقال النسفي: وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقد تسمى الإشارة كلاما وقولا (٢).

وقوله: { إِنسِيًّا} " لأنها كانت تكلم الملائكة دون الأنس" (٣)، وإنما أشارت إليه " لما تقدم لها من وعده أنه يجيبهم عنها ويغنيها عن الكلام " (٤) .

٢ــ الرمز أو الإشارة أو العلامة:

عد علماؤنا القدامى الإشارة عنصرا مهما في حديثهم عن حد الكلام فعرفوه بقولهم: " هو ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظا أو خطا أو إشارة أو ما نطق به لسان الحال " (٥)، قال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم:٢٩] أشارت أي أومأت إليه، واكتفت مريم بالإشارة إليه ولم تأمره؛ لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام، فغضب القوم منها وقالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تسخر منهم: كيف نكلم طفلا لا يزال في المهد أي في فراش الرضيع؟ (٦).

---

(١) تفسير ابن كثير، للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م . ١١٢/٣ .

(٢) تفسير النسفي، للإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ــ ط٢، ١٤٣٥هـ ،

(٣) تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، . ١٧٦/٦ .

(٤) المصدر نفسه :١٧٧/٦ .

(٥) شرح شذور الذهب، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٨، مصر، ٢٨، ٢٩ .

(٦) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن، دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م : ٢٤٤/٤، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر ــ دمشق ــ ط٢، ١٤١٨هـ : ٨١/١٦ .

قال أبو حيان:" الرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما، وأصله التحرك، يقال: ارتمز تحرك، ومنه قيل للبحر: الراموز، والإشارة تتنزل منزلة الكلام، وذلك موجود في كثير من السنة، وهو قول عامة الفقهاء كما أشار إلى أن من العلماء من أطلق الكلام في اللغة على الإشارة الدالة على ما في نفس المشير " (١) .

وهذا عنصر إشاري دال على المفرد الغائب، وجاءت الفاء العاطفة بين هذه الآية والآية السابقة للدلالة على سرعة حدوث هذه الإشارة من مريم عليها السلام حين أنكر عليها قومها ما رأوا منها، وقد جعلت مريم عليها السلام المتلقي من موقفها النهائي من (الإشارة) يتلهف لمعرفة ما ستسفر عنه الأحاديث من مواقف ومفاجآت (٢) .

والاستفهام في{ كَيْفَ نُكَلِّمُ} " استفهام إنكاري، أنكروا أن يكلموا ما لي من شأنه أن يتكلم، وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته، أي: كيف نترقب منه الجواب، أو كيف نلقي عليه السؤال؛ لأن الحالتين تقتضيان التكلم" (٣) .

ومما سبق يتضح أن أهم الدلالات التي توجد في الإشارة جاءت لتوكيد المعنى من خلال الإيماءات، وأن الإشارة قامت مقام الكلام وأدت نفس غرضه .

---

(١) البحر المحيط، ١٧٦/٦ .

(٢) ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم، محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ ٨٣/٣.

(٣) التحرير والتنوير: ٩٧/١٦ .

الخاتمة

بعد هذا التطواف في روضة من رياض القرآن الكريم وهي سورة مريم وإظهار بلاغة الصمت فيها، تجلت بعض مناحي الإعجاز ودلالاته وصور التعبير، وما تنطوي عليه من عطاء يتجدد ولطائف لا تُحد، فالقرآن الكريم بحر واسع عظيم، ودائرته متسعة الأفق لا يبلغ ساحله أحد.

اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد، وثلاثة مباحث؛ ففي التمهيد كان الحديث عن الصمت في اللغة والاصطلاح، وبلاغة الصمت في التراث العربي، ووقفت في المبحث الأول على التعريف بسورة مريم، وكشف المبحث الثاني عن دلالات الصمت البلاغية في سورة مريم، وتكفل المبحث الثالث بمرادفات الصمت في سورة مريم .

فالقرآن الكريم يزخر بالدلالات البلاغية واللطائف البيانية على اختلاف صورها، وتنوع طرق التعبير والتأثير فيه، وإيضاح هذه الدلالات يُسهم بحد كبير وسهم وافر في تجلية المعاني وتقريبها، وإظهار ما فيها من مكامن الإعجاز البلاغي.

النتائج:

وقد أسفر هذا التطواف القرآني عن عدد من النتائج أوجزها فيما يلي:

ــ الصمت ظاهرة عامة في القرآن الكريم، وقد اُستعمل بألفاظ متعددة ومعان مختلفة، إما تصريحا بلفظه أو مرادفاته، أو ما يفهم من سياق المعنى .

ــ الصوت والصمت ثنائية معجزة في سورة مريم، بين ما مر به نبي الله زكريا ومريم عليهما السلام من آيات إعجازية يتناوبها الخفاء والانجلاء .

ــ الصمت ظاهرة لغوية في النظام التواصلي تتنوع صورها بتنوع اتجاهات المبدعين، فدلالة السياق تدفع المتكلم أحيانا إلى الإيجاز والاقتصار والحذف لبعض عناصر الكلام .

ــ أظهر البحث كيف صُرفت القصص والمعاني والألفاظ الدالة على الصمت ومرادفاته في القرآن الكريم بطرائق شتى في مواطن متفرقة؛ لتتحقق بذلك مقاصده بأبلغ الأساليب وأبدعها.

ــ أن أهم الدلالات التي توجد في الإشارة والرمز جاءت لتوكيد المعنى من خلال الإيماءات.

التوصيات:

وقبل الختام أوصي الدارسين بالنهل من معين دلالات الصمت في القرآن الكريم التي لا تنضب :

ــ الصمت يعتبر ميدان خصب يحتاج لرعاية واهتمام أكثر، وبحوثا تطبيقية جادة للكشف عن جمالياته البلاغية.

ــ دراسة الصمت البلاغي ومرادفاته في كافة سور القرآن الكريم؛ للكشف عن براعة التعبير القرآني ودلالاته فيها .

ولله الحمد أولا وآخرا، وصلى الله على خير خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر والمراجع

١ــ **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار إحياء العلوم ــ بيروت ــ ط٣، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م .

٢ــ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، لأبي السعود، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ــ لبنان ــ ط١، ١٤٣١هـ ــ ٢٠١٠م .

٣ــ **البحر المحيط**، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م .

٤ــ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط٣، ١٤١٦هـ .

٥ــ **البيان والتبيين**، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٩٩٨م .

٦ــ **تفسير ابن كثير**، للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي، المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت، ١٤٣٥هـ ــ ٢٠١٤م .

٧ــ **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ .

٨ــ **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، المكتبة التوفيقية ــ القاهرة ــ مصر، ٢٠٠٣م .

٩ــ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر ــ دمشق ــ ط٢، ١٤١٨هـ .

١٠ـــ **تفسير النسفي**، للإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان ـــ ط٢، ١٤٣٥هـــ .

١١ـــ **التوقيف على مهمات التعاريف**، عبدالرؤوف محمد المناوي الشافعي، عالم الكتب ــ القاهرة ــ ط١، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .

١٢ــ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن حزم ــ بيروت ــ لبنان .

١٣ــ **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمد القرطبي، دار ابن الجوزي ــ القاهرة ــ ط١، ٢٠١٥م .

١٤ــ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار ابن الجوزي ــ القاهرة ـــ ط١، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م .

١٥ــ **جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي**، مؤسسة الكتب الثقافية ــ بيروت ــ ١٩٩./١

١٦ــ **حلية المحاضرة في صناعة الشعر**، محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي، تحقيق: جعفر الكتاني ــ بغداد ــ ١٩٧٩م .

١٧ــ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، السمين الحلبي، دار القلم ــ دمشق ــ ٢٠٠٨م.

١٨ــ **دراسة أسلوبية في سورة مريم**، معين رفيق أحمد صالح، جامعة النجاح الوطنية، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م .

١٩ــ **دلائل الإعجاز**، للإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ ط٥، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م .

٢٠ــ **رسائل الجاحظ**، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل ، ط١، بيروت، ١٩٩١م .

٢١ـــ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثـــاني**، شهاب الدين أبي الثناء محمود الألوسي البغدادي، مؤسسة الرســـالة ــ بيـــروت ــ لبنـــان، ط١، ١٤٣١هـــ ٢٠١٠م .

٢٢ــ **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٨م .

٢٣ــ **سيكولوجيا الدافعية والانفعالات**، محمـــد يـــونس عبـــد الله، دار المســـيرة، ٢٠٠٨م.

٢٤ـــ **شرح شذور الذهب**، لابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميـــد، ط٨، مصر .

٢٥ــ **العقد الفريد**، أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين، لجنة التـــأليف والترجمة ــ القاهرة ـــ ١٩٥٣م .

٢٦ــ **العلامة البصرية والبنى الرامزة**، قراءة في شعر عبد الهـــادي الفرطوســـي وسردياته، أ.د. عباس محمد رضا، دار تموز للطباعة والنشر ـــ دمشـــق ــ ط١، ٢٠١٢م .

٢٧ــ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ابن رشيق القيرواني، دار الكتـــب العلمية، ٢٠٠١م .

٢٨ــ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، للنيسابوري، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٤١٦ هـــ .

٢٩ــ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويـــل**، الإمام أبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنـــان، ط٥، ٢٠٠٩م .

٣٠ـــ **الكليات**، للقاضي أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، مؤسســـة الرســـالة، ١٤١٩هـــ ١٩٩٨م .

٣١ــ **لباب التأويل في معاني التنزيل**، لعلاء الدين علي بن محمد الشهير بالخازن، دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان، ١٣٩٩هـــ ١٩٧٩م .

٣٢ــ **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر ــ بيروت ــ لبنان .
٣٣ــ **اللسان ميزان بين الصمت والكلام**، عبد الباري محمد داود، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، القاهرة، ٢٠٠١م .
٣٤ــ **لطائف الإشارات**، لأبي القاسم القشيري، دار الغد الجديد، ٢٠٢١م .
٣٥ــ **المختصر في التفسير**، مركز تفسير للدراسات القرآنية، مكتبة الملك فهد الوطنية ــ الرياض ــ ط٢، ١٤٣٦هـ ــ ٢٠١٤م .
٣٦ــ **معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ــ لبنان ــ ط٥، ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م .
٣٧ــ **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون ، ط٢، ١٩٩٦م .
٣٨ــ **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ــ ط٢، ٢٠٠٨م .
٣٩ــ **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، ٢٠٠٩م .
٤٠ــ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م .
٤١ــ **الميزان في تفسير القرآن**، السيد محمد حسين الطباطبائي، مطبوعات الأندلس العالمية، بيروت ــ لبنان ــ .
٤٢ــ **نظرات لغوية في القرآن الكريم**، صالح بن حسين العايد، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع ــ الرياض ــ ط٣، ١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م.
٤٣ــ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، للإمام البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ــ ط٤، ١٤٣٢هـ ــ ٢٠١١م .
٤٤ــ **نقد الشعر**: قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب ــ قسطنطينة، ط١، ١٣٠٢م.
٤٥ــ **النكت والعيون**، لأبي الحسن علي بن محمد البغدادي الشهير بالماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان ــ ٢٠١٠م .

المجلات والدوريات:

١ــ **بلاغة الصمت دراسة تداولية**، د.وليد سعيد شيمي، مجلة كلية دار العلوم جامعة الفيوم، عدد (٣٦) ٢٠١٥م .

٢ــ **الصمت البلاغي (رحلة الصمت من النص إلى السينما)** د. زكية بنت محمد العتيبي، مقال عام ٢٠٢٠م .

٣ــ **الصمت سياسة في القول، ضمن كتاب في الصمت،** (الندوة العلمية الدواية) القسم العربي، أشرف على جمعه وقدمه، محمد الشيباني، جامعة صفاقص، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط١، ٢٠٠٨م .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٣٨٧٩
	Abstract	٣٨٨٠
٢-	المقدمة:	٣٨٨١
٣-	التمهيد	٣٨٨٤
٤-	المبحث الأول التعريف بسورة مريم:	٣٨٩٠
٥-	المبحث الثاني دلالات الصمت البلاغية في سورة مريم	٣٨٩٢
٦-	المبحث الثالث مرادفات الصمت في سورة مريم	٣٨٩٩
٧-	الخاتمة	٣٩٠٤
٨-	ثبت المصادر والمراجع	٣٩٠٦
٩-	فهرس الموضوعات	٣٩١١